

"يوم آخر" لخليل جريج وجوانا حاجي توما

موتى الحرب حاضرون غائبون آه أيها الجسد!

سينما

منذ أكثر من فيلم، ما يساعدهما في الأفصاح عن موقفهما المشكك بالتاريخ والرواية. ثانياً، لأنهما لم يعثرا ربما، على طرفين يليق بهما اسمى ما في العلاقة بين الأفراد: التفاهم عبر الحوار. أليس فشل التواصل بين الأفراد احدى سمات عصر ثورة الاتصالات؟ لذلك، يحاول الفيلم أن يكون شريك الواقع الذي يصوّره، وليس التصدي له، يأخذ منه ولا يجادله، ولا يتوانى عن استخدام وسائل الاعلام لإمرار المعلومات المفيدة الى المشاهد، رغم انه يعلم جيداً ان الميديا في واد الناس في واد آخر.

يشغل الجسد حصة كبيرة من اهتمامات جريج وجاجي توما. مثلاً، في فيلمهما السابق "رماد"، يقرر رب عائلة أن يحرق جثمانه بعد وفاته خلافاً للتقاليد السائدة. وفي الحياة خارج إطار الشاشة، كان أحد أفراد عائلة خليل جريج خطف أثناء الحرب ولم يعثر عليه، وبعد ستة عشر عاماً من اختفائه، أحيا العائلة قداساً من دون الجسد. هذه التجربة المرة هي التي همت الفيلم. جسد مالك، في "يوم آخر"، هو وسيلة اتصاله الوحيدة مع الجنس الآخر (والدته في مشهد الافتتاحية، وصديقه عندما يلتقيها في العلبة الليلية، وطبيبة في احد المستشفى). الجسد، بالنسبة الى الثنائي، هو ما يخرج سليماً معافى من هذه الجحيم، وهو يلعب دور الشافع في مشهد الختام، عندما يستفيق مالك من نومه العميق ويهم بالركض، لعل جسده يتجاوز الزمان والمكان.

يصور المخرجان بيروت مدينة لا يغمض فيها الساهرون على الامن عينهم. المشكلة انه لم يبق من هؤلاء الساهرين

الا الميليشيوسون القدماء الذين دخلوا شركات الحراسة

الخاصة، فضلاً عن المطربات الصاعدات اللواتي من اعلى

ملصقاتهن الاعلانية، يرافقن ولا يفسحن مجال الراحة

لشاب وفتاة (مالك وصديقه) يرغبان في العثور على مكان

هادئ لتبادل القبلات، او ربما

أكثر. تلك العين الساهرة هي ايضاً عين ام مالك المتملّكة

التي ترحب في استبدال رجل

(الزوج) برجل آخر (الابن). وبين

سيطرة الام التي تبحث عن

بديل وحبها للملك، وززوات الحبّيبة التي تمسك بقدر مالك العاطفي، فإن المجتمع الذي يصوّره المخرجان ليس بطريقه على الاطلاق، وخصوصاً ان الوالد غائب عن المنزل منذ عقد ونصف عقد، وان اعلان وفاته لا يخلو من الدلالات على هذا الصعيد.

على المستوى الدرامي، يرسم الفيلم علامات استفهام كبيرة: من اين خرجت صديقة مالك، ماذا حصل لكي يولد هذا التصادم بينهما؟ يعمل الثنائي وفق منطق سينمائي خاص، مفاده "أننا لا نعرف شيئاً عن حياة شخصياتنا".

لذلك، ثمة في الفيلم "حديقة سرية" خاصة بكل مشاهد من المشاهدين، يمكنه أن يقرأ الاحداث من خلفيته الخاصة.

بيد ان مجال البحث والتدقيق والاجتهاد شاسع في أطروحتات الفيلم، والتفاصيل المستفادة كثيرة ما تشير الى الجوهر والى الاتجاه الذي يجب الذهاب اليه. في المحصلة، صار ذوق

الثنائي السينمائي ارفع شأنـاً مما كانـه في "البيت الـزـهـرـ" ، وباتت لغته السينمائية شفافة ونقية، تعتمـد على صـراحـة

الصـورـةـ أكثرـ مماـ تـكـنـىـ علىـ تـبـادـلـ الـحـوارـاتـ . بـعـدـ هـذـاـ الإـنـتـاجـ

المـتقـنـ الصـنـعـ، لاـ نـسـتـغـرـبـ الـاستـحـسانـ، عـلـىـ الصـعـيـدـينـ

الـنـقـدـيـ والمـهـرجـانـيـ، الـذـيـ لـقـيـهـ الفـيـلـمـ فيـ الـغـربـ . جـبـداـ انـ

يـحظـيـ بـمـصـيرـ مشـابـهـ فيـ شـبـاكـ التـذـاـكـرـ الـلـبـانـيـ كـرـدـ حـضـاريـ

وـسـينـمـائـيـ عـلـىـ الـذـيـ يـدـعـونـ اـنـهـ يـمـثـلـونـ "ـالـثـقـافـةـ"

الـرـائـجـةـ فيـ هـذـهـ الـبـلـادـ، وـيـفـهـمـونـ مـاضـيـهاـ وـحـاضـرـهاـ وـمـسـتـقـلـهاـ، عـلـماـ

انـ الـاقـبـالـ الشـعـبـيـ لمـ يـكـنـ يـوـمـاـ مـعيـارـاـ لـلـنـجـاحـ . بلـ نـقـيـضـ ذـلـكـ

فـيـ بـعـضـ الـاحـيـاـنـ .

هـوـفـيكـ حـبـشـيانـ

(*) يـعـرـضـ بـدـءـاـ مـنـ مـسـاءـ غـدـ فيـ سـلـسـلـةـ صـالـاتـ "ـأـمـبـيرـ" وـ"ـسـينـمـاسـيـتـيـ".

بيروت، في الفيلم الروائي الطويل

الثاني للثنائي خليل جريج - جوانا

حاجي توما (بعد سلسلة افلام قصيرة

آخرها "رماد")، هي تلك الجحيم الباردة

التي تبصق لعنتها على من بقي فيها

حيـاـ وـلـمـ تـلـتـهـمـ النـيـرـانـ . هـذـهـ الجـحـيمـ تقـاصـصـ الـاحـيـاءـ لـانـهـ

لمـ يـمـوتـواـ، فـتـبـقـيـهـمـ فيـ حالـ مـنـ يـنـتـظـرـ الموـتـ . بـيـرـوـتـ، نـعـيـدـ

اكتـشـافـهـاـ هـنـاـ، كـتـلـكـ المـدـيـنـةـ المـنـكـوـبـةـ ماـ بـعـدـ القـنـبـلـةـ الـذـرـيـةـ

الـتـيـ تـحـاـولـ النـهـوضـ، فـيـ حـيـنـ تـغـصـ شـوـارـعـهـاـ بـالـشـحـاذـينـ

وـزـحـمةـ السـيـرـ وـشـارـاتـ المـرـورـ، وـتـزـينـ صـورـ المـفـنـيـاتـ مـؤـخرـةـ

الـشـاحـنـاتـ أوـ تـرـفـعـ عـلـىـ جـدـرـانـ الـمـبـانـيـ الـعـالـيـةـ . اـنـهـ التـبـدـلـ

الـخـلـقـيـ الـذـيـ يـطـرـأـ عـادـةـ عـقـبـ كـارـثـةـ بـيـئـيـةـ، فـتـصـيرـ الـمـدـيـنـةـ

وـرـشـةـ عـمـلـ كـبـيرـةـ لـتـرـمـيمـ الـحـجـرـ وـانـقـاذـ الـبـشـرـ . لـكـنـ: أـجـائـزـ أـنـ

نـتـعـاطـيـ معـ مـنـ حـوـلـنـاـ بـعـلـاقـاتـ اـنـسـانـيـةـ طـبـيعـيـةـ، ايـ أـنـ نـحـبـ

وـنـكـرـهـ وـنـسـامـحـ، فـيـ حـيـنـ لـاـ تـرـازـ الجـثـثـ تـنـتـظـرـ مـنـ يـتـعـرـفـ

إـلـيـهـاـ، وـالـمـفـقـودـونـ مـنـ يـعـلـنـ وـفـاتـهـمـ؟

اسـتـئـلـةـ المـاـضـيـ الـمـعـلـقـةـ، تـهـزـ ثـبـاتـ الـحـاـضـرـ الـجـدـيـدـ بـتـجـلـيـاتـهـ

الـاـجـتـمـاعـيـةـ . يـتـسـأـلـ المـخـرـجـانـ: "ـتـرـىـ، مـاـذـاـ يـحـصـلـ إـذـاـ قـرـرـ

اـهـلـ اـحـدـ الـمـفـقـودـينـ خـلـالـ الـحـرـبـ أـنـ يـعـلـنـ الـمـغـيـبـ رـاحـلـاـ؟ـ"

وـفـجـأـةـ، يـصـبـحـ مـاـ كـانـ مـفـرـضاـ أـنـ يـكـونـ النـهـاـيـةـ (ـتـوـقـيـعـ وـرـقـةـ

اعـلـانـ الـوـفـاـ)، بـدـايـةـ قـصـةـ قـوـامـهـاـ صـعـوبـةـ اـنـ يـعـلـنـ الـمـرـءـ الـحـدـادـ،

أـوـ يـصـبـرـ عـلـىـ حـرـمـانـهـ كـائـنـاـ، فـيـ غـيـابـ الـجـسـدـ .

بـكـلـمـتـيـنـ، نـخـتـصـ حـبـكـةـ "ـيـوـمـ آـخـرـ" القـائـمـةـ عـلـىـ مـبـادـرـةـ

اسـتـرـجـاعـ سـيـقـوـمـ بـهـاـكـلـ مـنـ مـالـكـ (ـزيـادـ سـعـدـ) وـوـالـدـتـهـ

كـلـودـيـاـ (ـجـولـيـاـ قـصـارـ) . الـاـولـ

يـرـيدـ اـنـ يـتـصـالـحـ مـعـ صـدـيقـتـهـ

(ـكـسـنـدـرـاـ قـهـوـجـيـ)، فـيـ حـيـنـ اـنـ الثـانـيـ تـحـاـولـ شـطـبـ

ماـضـ عـبـرـ اـعـلـانـ زـوـجـهـ

الـمـفـقـودـ، مـتـوفـيـاـ، وـاستـعـادـةـ

عـصـرـ الـعـولـمـةـ وـالـلـيـبـرـالـيـةـ

الـشـرـسـةـ، يـنـسـحـبـ عـلـىـ

الـشـخـصـيـاتـ الـتـيـ تـشـفـلـهـاـ .

بـيـدـ اـنـ اـيـقـاعـ الـمـدـيـنـةـ مـخـتـلـفـ

عـنـ الـاـيـقـاعـ الـذـيـ يـعـيـشـهـ

الـنـاسـ . فـالـسـرـعةـ الـتـيـ تـتـطـوـرـ

فـيـهـ الـاـمـورـ لـتـنـسـجـ مـعـهـ الـعـقـولـ الـخـارـجـةـ مـنـ الـحـرـبـ، وـهـيـ

اـحـوـجـ مـاـ تـكـوـنـ اـلـوـقـوـتـ لـتـدـرـكـ مـاـ حـصـلـ .

مـنـ الـبـدـءـ، يـضـعـنـاـ الثـانـيـ قـبـالـةـ مـعـاـدـلـةـ الـفـيـابـ - الـحـضـورـ:

الـحـرـبـ حـاضـرـ لـكـنـهـ اـيـضـاـ غـائـبـةـ . الـاـمـوـاتـ حـاـضـرـونـ لـكـنـهـ

اـيـضـاـ غـائـبـونـ، لـأـنـ لـاـ اـحـدـ عـثـرـ عـلـىـ جـثـامـينـ . تـتـطـوـرـ الـلـفـةـ

الـسـيـنـمـائـيـةـ عـلـىـ خـلـفـيـةـ تـنـاقـضـاتـ وـاضـحةـ: يـنـبـضـ الشـارـعـ

الـبـيـرـوـتـيـ الـحـيـويـ، بـسـيـارـاتـ الـتـيـ لـاـ نـعـرـفـ مـنـ أـينـ تـأـتـيـ وـلـاـ إـلـىـ

أـينـ تـذـهـبـ (ـبـيـرـوـتـ مـرـأـبـاـ ضـخـمـاـ لـلـسـيـارـاتـ)، وـبـمـنـاخـهـ الـضـبابـيـ

الـذـيـ يـلـتـقـطـهـ الـمـخـرـجـانـ بـالـكـثـيرـ مـنـ اـدـراكـ الـتـفـاصـيلـ، بـاـيـقـاعـ

مـخـتـلـفـ عـنـ نـبـضـاتـ قـلـبـ مـالـكـ الـذـيـ يـعـانـيـ مـشـكـلـةـ انـقـطـاعـ

تـنـفـسـ، فـيـقـيـبـ لـلـحـظـاتـ عـنـ نـفـسـهـ وـالـدـنـيـاـ وـالـحـاضـرـ، كـأـنـهـ

يـعـيـشـ بـيـنـ زـمـنـيـنـ عـلـىـ قـلـبـ الـاـنـسـانـيـ عـلـىـ نـبـضـ الـمـدـيـنـةـ الـذـيـ لـمـ

يـعـدـ يـتـعـرـفـ إـلـيـهـ اوـ يـفـهـمـهـ . فـيـ لـحـظـاتـ الـفـيـبـوـبـةـ الـتـيـ يـمـرـ

بـهـ مـالـكـ، تـتـسـارـعـ وـتـيـرـةـ الـمـدـيـنـةـ أـكـثـرـ وـاـكـثـرـ فـيـ سـيـاقـهـاـ مـعـ

الـزـمـنـ وـفـيـ عـمـلـيـةـ مـحـوـ الـذـاـكـرـةـ وـتـعـزـيزـ فـكـرـةـ الـنـسـيـانـ، بـيـنـماـ

هـوـ يـبـقـيـ فـيـ مـكـانـهـ، قـابـعاـ فـيـ ذـكـرـيـاتـهـ .

لـاـ تـنـتـظـرـوـاـ فـيـ "ـيـوـمـ آـخـرـ" ، قـصـةـ شـائـقـةـ وـمـفـارـقـاتـ وـضـرـبةـ

مـسـرـحـ تـخـتـمـ الـكـلـ . جـلـ مـاـ يـدـسـهـ الـمـخـرـجـانـ فـيـ الـفـيـلـمـ كـ"ـأـثـرـ

زـائـفـ"ـ، وـبـهـدـفـ اـسـتـئـنـاـرـ غـرـيـزـةـ الـفـضـولـ لـدـيـ الـمـشـاـهـدـ، هـوـ

الـمـسـدـسـ الـذـيـ يـحـمـلـهـ مـالـكـ طـوـالـ الـفـيـلـمـ وـبـقـيـ بـلـاـ حـجـةـ

دـرامـيـةـ تـبـرـرـ وـجـودـهـ . الـمـخـرـجـانـ الـمـهـتـمـانـ بـتـطـوـيرـ عـلـاقـةـ

سـيـنـمـاهـمـاـ بـالـلـوـقـتـ، وـعـلـاقـتـهـمـاـ بـالـزـمـنـ السـيـنـمـائـيـ، يـصـوـرـانـ

فـيـ هـذـهـ الـلـيـوـمـ الـاـسـتـثـنـائـيـ وـغـيـرـ المـثـالـيـ (ـتـكـذـيـبـاـ لـلـعـن